

أعيد طبع هذا الكتاب على نفقة

السيد سليم حبيب نقولا خشة

حفيد الشهيد الأول ونجل الشهيد الثاني

وبسعي

الأم بيلاجيا سياف

رئيسة دير القديسة تقلا البطريركي
في معلولا

مقدمة

إن الهدف من نشر هذا الكتيب هو حفظ وتقديم سيرة عطرة بمحبة المسيح لأب انخرط في سلك الكهنوت، ولإبن له، بالجسد، لم يضع رجاءه في خلاصه على كون والده كاهنا للعليّ، بل وضع رجاءه في المخلص نفسه مقتفيا خطى والده، الذي رأى فيه قداسة الخدمة الكهنوتية وحباً لرب الكنيسة ولشعبها المؤمن.

ومع أن خدمتهما هي واحدة، الخدمة الكهنوتية، إلا أن كلا منهما اختار طريقاً في حياة السيد مثالاً له تبعه في حياته. لكنهما اشتركا معاً في نهاية واحدة لحياتهما تقدمة إلى المخلص الواحد، ليحييا معه في القداسة إلى الأبد.

وذلك على مثال الشجرة التي أصلها واحد، يسوع المسيح، وفروعها كثيرة، شعبه المؤمن، ونوع ثمارها المتعددة واحد، حياة القداسة مع الرب.

فالأب الكاهن نقولا الذي إئتمنه سيده، الراعي الصالح الأوحد الرب يسوع المسيح، على خراف رعيته، والذي أسلمه إياها لتكون تحت حمايته وفي رعايته، كان أميناً عليها محبة في سيد القطيع وسيده، لئلا يقف خازياً أمام ربه إذا فقد منه أحد الخراف، عندما يسأله عن كل واحد من خرافه باسمها، لم يتركها هارباً خوفاً من الذئاب لتنهشها، بل وضع نفسه حامياً لها بحياته غير هائب الموت، مقدماً ذاته عنها لربه وربها يسوع المسيح الذي بذل نفسه فداءً عن جميع البشر ليعطيهم الحياة بقيامته من الأموات.

أما الإبـن، الأب حبيـب، فقد إختـار طريقـاً آخر للتعبيـر عن محبته ليسـوع المسـيح. فرأي في الإخوة الأصاغر، إخوة الرب، الفقير واليتيم والأرملة وجه مخلصه. وكان عطاؤه غير المحدود لهم هو عطاء لربه فيهم، قارناً هذا العطاء بالصلاة النابعة من القلب. واضعا الآخـرة نصب عينيه، حتى يكـون مـن المدعـوين ليرثـوا الملكـوت المعد لهم والقائمين عن يميـن الرب يسـوع الذي قـال فيهـم: "لأني جعت فأطعمتمـوني، عطشت فسـقيتموني، كنت غريباً فأويتموني، عرياناً فكسـيتموني، مريضاً فزرتموني، محبوساً فأتيتـم إليّ".

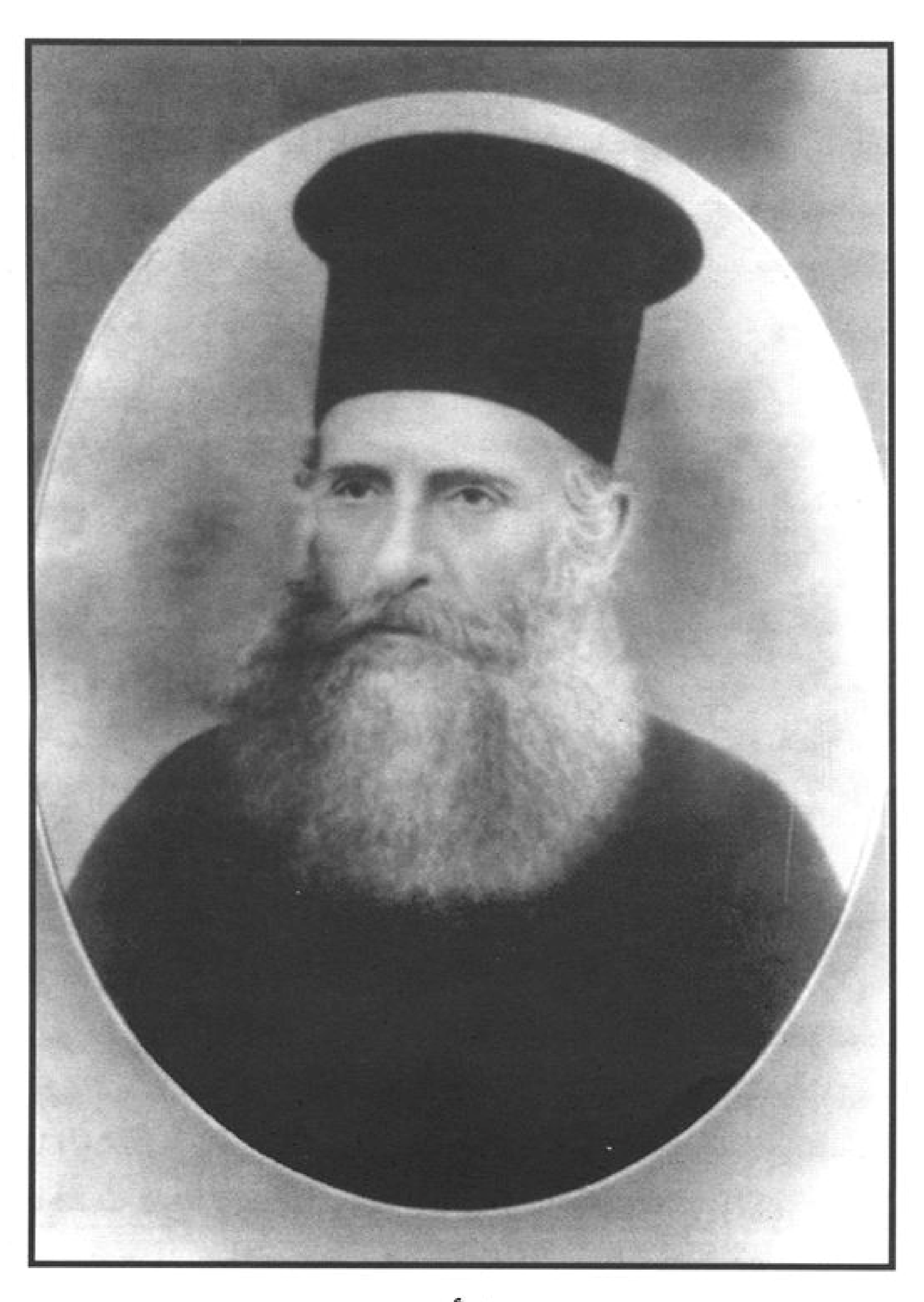
ومثل والده الأب نقولا، لم يقف عطاء الأب حبيب عند حد العطاء المادي للبشـر إلا أنه تعداه إلى عطاء جسده لسيده الرب يسوع المسـيح على مذبح الشهادة غير ناكـر له قـدام الناس، بل ناكراً نفسه حاملاً صليب التعذيب، متمسكاً باعترافه برب المجد رباً وإلهاً حتى الموت ليعتـرف به ربه في السموات.

إن كنيستنا الأرثوذكسية تكرم شهداءها في الكهنة بالطروبارية (التمجيد) التالية:

" صرت مشابهاً للرسل فِي أحوالهم وخليفة في كراسيهم فوجـدت بالعمل المصعد إلى الثاؤريا (الرؤية الإلهية). أيها اللاهج بالله. لأجل ذلك تتبعت كلمة الحق باستقامة وجاهدت عن الإيمان حتى الدم أيها الشهيد في الكهنة(فلان) فتشـفع إلى المسـيح الإله أن يخلص نفوسـنا"

المطران / نقولا أنطونيو

مترووبوليت طنطا وتوابعها
والوكيل البطريركي لشئون الطائفة العربية بمصر



الأب

نقــــولا خشــــه

الشهيد في الكهنة
نقـــولا خشــه
٢ أغسطس (آب) ١٩١٧ م

ولد الأب نقولا في دمشق بسوريا في ٣١ أغسطس (آب) سنة ١٨٥٦م من أبوين تقيين هما يوسف خشه ومريم مقبعة وتلقى العلم في مدارس الشام وتعاطى تجارة الحرير وكان من أكبر الساعين إلى تعريب الكرسي الأنطاكي وقاسى في هذا السبيل السجن مراراً والاضطهاد وتعطيل الأشغال وكان من زعماء الجمعية الطائفية التي كانت تسعى لذلك الغرض وكانت هذه الجمعية يطاردها البوليس، ومراراً قبض على أعضائها وهم مجتمعون، وهكذا إستمر نقولا في سعيه إلى أن ظفر بأمنيته مع معشر المجاهدين إخوانه وسيم أول بطريرك سوري هو المثلث الرحمات البطريرك ملاتيوس دوماني.

ونظراً لما كان أصابه من تعطيل الأشغال قصد القطر المصري حيث أقام نحو ثمانية أشهر يتعاطى التجارة وبعد رجوعه إلى دمشق إنتخبته الطائفة كاهناً وكانت سيامته شماساً في ٢٥ مارس (آذار) سنة ١٩٠٠ وكاهناً في ٣ يونية (حزيران) في نفس السنة.

نطاق خدمته

أقام الأب نقولا في دمشق يخدم الرعية "بكل ما أوتي من همة وحكمة وإختبار" وترأس مدة طويلة جمعية القديس يوحنا الدمشقي وله أيادي بيضاء مسجلة في تاريخ الجمعية منها خدماته لمدرستها

الليلية ومدرستها بالقصّاع وغرف القراءة وكان محبوباً جداً حائزاً على إعتبار عظيم فضّاضاً للمشاكل وكان مندوب البطريرك ملاتيوس في أشغال الحكومة ووكيله مدة غيابه وطوافه في أنحــاء الكرسي، جسوراً ذا منزلة كبرى عند الحكام. وتولى مدة طويلة وكالة دير صيدنايا وتعب كثيراً في سبيل تحسين أوقافه وأراضيه وضبط حساباته بنفسه، لا تكل عزيمته ولا يقعده تعب. ومراراً أوفد من قبل البطريركية إلى بعض الأبرشيات لفض المشاكل وإصلاح ذات البين منها أبرشيات حلب وحاصبيا كما وإلى دير عطية ويبرود وكان خطيباً جريئاً يحسب له حساب في المواقف الإجتماعية وواعظاً مفوهاً لا تزال الطائفة تذكر المواعظ التي كان يرتجلها في الكنيسة المريمية.

وفي سنة ١٩٠٨ أوفده غبطة البطريرك غريغوريوس الرابع وكيلاً بطريركياً إلى أبرشية كيليكيا على أثر استعفاء سيادة المطران ألكسندروس طحان وكانت حياته فيها سلسلة مساعي وجهاد. ولما حدثت المذابح في الولاية وُكّل بالدفاع عن مصالح بعض الطوائف غير الأرثوذكسية أيضاً وساعد متصرف مرسين مساعدة كبرى في تهدئة الخواطر ومنذ وصوله إلى مرسين سعى بإصلاح الأوقاف وكنيسة الطائفة فاتخذت شكلاً جديداً وعمّر قبة الجرس وأعاد إفتتاح مدرسة الصبيان ومدرسة البنات فامّهما الطلاب من كافة الطوائف وكان لا يقل عددهم عن ٣٠٠ تلميذ وتلميذة. وأنشأ جمعية زهرة العفاف للسيدات لتعتني بمدرسة البنات وكان يخصص بعض ساعات من وقته لتدريس الحساب والتعليم المسيحي وتفسير الإنجيل في المدرستين وعزز مركز قومسيون الطائفة وجمعية مساعدة الفقراء وله مواقف لا

تتسى في شؤون الطائفة العمومية وكان من حين إلى آخر يصدر كَراساً يحوي حسابات الأوقاف والمدرسة والكنيسة والجمعيات وهذه الحسابات كان يضبطها بنفسه. وفي مدة الحرب العظمى زادت أعباء وظيفته من أشـغال في الحكومة ومعاكسات مختلفة والاهتمام بأمر العائلات المحتاجة وختمت حياته المجيدة في ٢ أغسطس (آب) سنة ١٩١٧ باستشهاده في حادثة سيرد بيانها.

مناقبه وفضائله:

وقد قال ولده، الشهيد في الكهنة حبيب، في سرد مناقبه: "كان رحمه الله كريم الأخلاق مضيافاً بشوشاً ذا إرادة حديدية وحكمة وثبات وإنعطاف على المظلوم. من فطرته تضحية كل ما كان بإمكانه لمساعدة الضعيف من أى مذهب وجنس. ولا ينسى لطفه وعنايته وجهاء بيروت والشام الذين كانوا مدة الحرب منفيين في مرسين. وكان لا يهاب ملامة ولا يهمه حظوة في سبيل الحق. واكليريكي الكرسي الأنطاكي كلهم يعرفونه حق المعرفة وكانوا يحترمون آراءه ونفوذه وإخلاصه ويقدرون خدماته. غيوراً على الدين والعلم، كثير المطالعة، كثير الاختلاط بجميع طبقات الناس. ينال مراده بأحسن أسلوب. يصلح بين فريقين وينال محبة كليهما. يعرف كيف يتصرف مع كل إنسان حسب مداركه ومقامه. وكان ذا نفوذ ومنزلة كبرى عند أولي الأمر وأصحاب الجاه والمراكز الرفيعة، يعرف كيف يعاملهم وينجز الأشغال المتعلقة بهم، وبالإجمال كان رجلاً إجتماعياً وخادماً للشعب بكل معنى الكلمة".

ومما يذكر من مآثره الكثيرة حادثة فتاة مسيحية إختطفها

الجراكسة من بيت أبيها في الجبال فكانوا يأخذونها من قرية إلى أخرى ومن محل إلى آخر إلى أن وصلوا بها إلى مرسين، ووالدها الحزين يتبعهم قصد تخليص إبنته وهو عاجز عن ذلك. فذهب والدها إلى الأب نقولا وقص عليه حكاية إبنته فللحال شمر عن ساعد الجد شأنه في كل حادثة وأعلم قنصل روسيا بالأمر فما كان من خاطفي الفتاة سوى الهرب إلى أطنة فجد في أثرهم إلى دار الولاية في أطنه وطالب الوالي بالفتاة المسيحية. فأجابه أن الفتاة تطلب إعتناق دين الإسلام وأن لا حق له بالاعتراض بل عليه أن يكون هنا كشاهد على الفتاة. وزاد على ذلك متهكماً أن الفتاة ستقول ذلك الأن أمامك فاسمع!

فدخلت عندئذ الفتاة وهي ترتجف خوفا فنظر إليها بعطف وقال مخاطباً الوالي بكل جرأة: إن التعاليم المسيحية لا تنطبق على هذه الشهادة بل عليك أن ترجع الفتاة إلى منزلي كي تبقى عندي ثلاثة أيام وبعدها نستجوب الفتاة. فقال الوالي بغضب أنتم الآباء الروحيون دائماً تتداخلون بمسائل الحكومة التي لا تعنيكم! فأجابه بقوله إرفعوا الظلم لا نتداخل ...!

قال ذلك غير هياب ولا وجل وهو في وسط مدينة المذابح المشهورة التي فيها قتل عشرات الألوف من الأرمن الأبرياء بيد الأتراك السفاحين في عام ١٩٠٨ ثم قفل راجعاً إلى مركزه. وبعد بضعة أيام كانت الفتاة حرة في الديار المصرية بفضل ومسعى الأب نقولا وروسيا الرؤوفة.

وكان الأب نقولا إلى ذلك، خطيباً جريئاً وواعظاً مفوهاً. وقد بقيت رعية دمشق تذكر مواعظه المرتجلة في الكنيسة المريمية، بعد

استشهاده بزمان. قال عنه السيد أثناسيوس عطا الله، مطران حمص وتوابعها بعد استشهاده: "أذكر طلاقة لسانه واسترساله في الوعظ والتفسير مما يذكرنا بالذهبي الفم".

إستشـهاده:

جاء في خبر إستشهاد الأب نقولا أن رجلاً من أهل مرسين إسمه جرجي، من أبناء الرعية الأرثوذكسية فيها، إضطرته الفاقة والعوز إلى الإنتقال إلى جزيرة قبرص. وهناك إتصل بالقنصل الإنجليزي السابق في مرسين، المدعو الخواجا أبيلا، فكلفه هذا الأخير بنقل رسائل إلى عدد من أبناء الطائفة الوجهاء والمعروفين في مرسين لقاء مبلغ من المال. حمل جرجي الرسائل وعاد بها إلى بلده. ولكن قبل أن يعمل على توزيعها على أصحابها خطر بباله أن يستشير الأب نقولا، فلما عرض عليه الأمر وبخه ومنعه من تنفيذ مهمته، ثم أخذ الرسائل منه وأتلفها وكتم خبرها. لكن جرجي ما لبث، حباً بالمال، أن تحرك باتجاه قبرص من جديد فألقى الأتراك القبض عليه. ولما أخضعه القومندان بهاء الدين، المشهور بعدائه للمسيحيين، للتعذيب إعترف أنه إتصل بالأب نقولا. فجيء به للتحقيق. وكان غرض بهاء الدين، منذ البداية، إنتزاع إعتراف من الأب نقولا بأسماء المرسل إليهم الرسائل.

يقول أحد الرواة أن القومندان كان يصدر إلى هيئة التحقيق "الأمر تلو الأمر بأن تنزل في المتهم أفظع ما يمكن أن يخترعه العقل البشرى من وسائل التعذيب ليجيء قراره على ما يوافق رغبته الخبيثة من وقوع التهمة على الأبرياء بجرم خيانة الوطن والتمتع بلذة الإنتقام".

أما الأب نقولا فلم يثنه عن عزمه لا جوع ولا ألم ولم يبال بالسياط ولا بقلع الأظافر وتكسير الأضلاع. إحتمل بمنتهى الجلد فظاظة حارس ضخم قضى الليل بطوله يرتمي بجثته الضخمة على الصدر النحيف للأب نقولا الذي لم ينبس ببنت شفه ولا ذكر أيا من أسماء الذين كانت الرسائل موجهة إليهم لئلا يعرض أحداً منهم للأذى. عزاؤه في عذابه كان بتلاوة فصول من الكتاب المقدس. ولم يزل الجلادون يشبعون الأب نقولا ضرباً وتهشيماً حتى حطموا جمجمته فقضى نحبه شهيداً للمسيح، غيوراً على ما لله وما لشعب الله. كان ذلك في الثاني من شهر أغسطس (آب) من السنة الميلادية ١٩١٧.

شهادات أهل زمانه فيه:

في رسالة للبطريرك غريغوريوس الرابع وجهها، في ١٧ نوفمبر (تشرين الثاني) سنة ١٩١٨م، إلى عائلة الشهيد في مصر، جاء ما يلي:

"إن من كان كوالدكم ساهراً على محرس النفوس المفتداة وجاهداً في خدمة مصلحة البيعة المقدسة لا عجب أن يلاقي المحن والشدائد لاسيما وهو يسمع رئيس الكنيسة العظيم يخاطبه كن أمينا حتى الموت فأعطيك إكليل الحياة فقد تمسك بالأمانة واستودع نفسه بيد خالقه متيقنا أنه ينال إكليل الحياة في مجد القديسين الأبدي فرحمه الله وخلد إسمه الطيب وأبقاكم أنتم وإخوتكم خلفاً صالحاً وعزى بكم فؤاد الوالدة المكرمة".

وقال عنه السيد أثناسيوس عطا الله، مطران حمص وتوابعها:

" نعما أيها العبد الصالح الأمين كنت أميناً في القليل فأقيمك

على الكثير إدخل إلى فرح ربك" لا تمر في مخيلتي صورة الشهيد في الكهنة المثلث الرحمات الخوري نقولا خشه حتى أذكر لأول وهلة وقفة العبد الصالح الأمين الذي أحسن الجهاد في مدة تجنده وهو ينتظر كلمة مولاه الأخيرة حكماً له أو عليه. وهنالك في تلك الساعة الرهيبة ساعة القضاء الأخير تبرز تلك الكلمة العذبة من الفم الإلهي الباش تمطر على ذلك الفؤاد المضطرم بالحب والإخلاص كوثراً منعشاً معلنة أن العدل الإلهي قد قدر له خدماته حق قدرها وهو يكافئه عما فعل..."

وقال عنه السيد جراسيموس مسرة، مطران بيروت وتوابعها:

" كان الفقيد رحمة الله عليه من خيرة أبناء الكنيسة الأرثوذكسية ومن خدمتها النشيطين الذين امتازوا بالسيرة الحسنة وتفوقوا بحسن الرعاية نحو الرعية التي أؤتمن عليها وتاجروا بالوزنة المعطاة لهم تجارة استحقت أن يسمع لأجلها تلك النغمة اللذيذة. أدخل أيها العبد الصالح إلى فرح ربك. ولقد عرفناه عاميا فإكليريكيا وكان في كلتا الحالتين مثال البر والصلاح وقدوة في السيرة الفاضلة ونموذجاً في الأعمـــال الحسنة وأباً حقيقياً لأولاده الروحيين الذين غذاهم بإرشاداته النافعة وغرس في قلوبهم حب الإيمان الحقيقي بما كان يتلوه عليهم من الأقوال المصيبة سواء كان في الكنيسة أو في غيرها وهكذا كانت حياته كلها في جهاد إلى أن قضى نحبه تحت أشد الظلم وأفظع المعاملات بما لاقاه من الجوع والاستبداد فكان موته موت استشهاد يذكره أبناء الكنيسة بالمديح ويكتبه له الباريء في صحيفة الأبناء المخلصين في سفر الحياة وهذا أكبر تعزية تتندى بها القلوب الحزينة على فقده وتتعزى بها على الحالة التي قضى فيها فنسأله تعالى أن

يضمه بين الأخيار والصالحين حيث لحن المعيدين الذين لا يفتر ولذة مشاهدة نوره السماوي"

وقال عنه السيد ألكسندروس طحان، مطران طرابلس وتوابعها :

" ... في عصر تهافت فيه الناس على إختراع أساليب الحيلة للنجاة من الموت ... نرى صورة مخشعة تتجلى فيها أمامنا نفس الخوري نقولا خشـه تجود بجسدها الخائر القوي من تعذيب المعذبين وقلة القوت لتخلص آخرين. هذه صورة لامعة للصورة العظيمة التي رآها العالم يوماً ما في الجلجلة يوم صلب فادي العالم لخلاص البشر... سأذكر إسمك مثالاً للرعاة الأمناء على رعيتهم وأورد ذكرك وعملك كلما ذكرت خدمتك في مرسين البلد الذي خدمت نفوس رعيتك فيه خدمة الأمين ومتّ من أجلهم موت الأبطال لتخلص الغير" .

وقال السيد باسيليوس دبس مطران عكار وتوابعها :

"الإبن الروحي الحبيب الشهيد الخوري نقولا الذي قضى معظم حياته في خدمة وتثقيف الرعية الأرثوذكسية على المباديء القويمة الرأي يا رحمة الله عليه عرفناه ورافقناه وعاشرناه واختبرناه وكنا ولم نزل ولن نزل نذكره بالدعاء والثناء والآن نذكره بالرحمة ثلاثاً .

نرغب لأبنائه كل خير وتوفيق وننتظر لهم مستقبلاً حسناً بمعونة الله لأنهم نخباء وأدباء أبناء ذلك الشهيد المملوء من الأمانة والغيرة كيف لا وقد سلم بحياته احتفاظاً على حياة كثيرين من رعيته وقضى آخر دقيقة منها في خدمتها خوفاً منه على حياتهم من شر أولئك الظالمين البغاة قاتلي الأبرياء قاتلهم الله وأهلك نفوسهم وأجسادهم في جهنم.

إن الفاجعة بالخوري نقولا خشه فاجعة عظيمة أصابت الطائفة لأنها خسرت ركناً من أركانها أسكنه الله مع الشهداء والأبرياء والصديقين وعوضنا بسلامة أولاده وأرانا فيهم أثماراً يانعة في عضوية الكنيسة الأرثوذكسية مشمولين بعنايته الإلهية.

وقال عنه السيد روفائيل نمر، مطران حلب وإسكندرونة وتوابعهما:

" .. كان ممن تاجروا بوزناتهم فربحت أضعافاً ... مات شهيداً بيد الجور والظلم يكلله الوفاء ... فذكّرتنا أعماله .. بجهاد الشهداء والأبرار ...".

وكتبت عنه السيدة روزا توفيق اسكندر من هليوبوليس في مصر، تقول:

" إن ذكركم الكريم وما كنتم تبذلونه من التضحية في سبيل مساعدة الضعيف لا تمحوه الأيام من قلب كل من عرفكم.

نعم لقد أسلمتم تلك الروح المقدسة صامتين ولكن أدعيتكم تنطلق من أعماق صدركم لكل من إبنائكم ومحبيكم ولعائلتكم العزيزة التي فارقتموها ليلاً صاغرين لأحكام الاستبداد باغتيالكم وإختطافكم من أحضانها تاركينها تحت نير الظالمين وجاهلين مصيركم ومصيرها فشعرتم برنة حزنها العميق وبذلك تضاعفت آلامكم وتضاعفت رحمة الباري باستجابة توسلاتكم الحارة فحفظ سبحانه تعالى العائلة المحبوبة ووقاها من شر القتلة السفاحين، دامت بوراثتها أعمالكم المبرورة وشهامتكم النادرة ذكراً خالداً لشخصكم الكريم دائماً وإلى الأبد.

إنكم أيها الأب المحب في دار السعادة الخالدة اليوم وهي لا

تحرمكم من ثمرة ما قاسيتموه ظلماً فتضيء لكم نوراً شفافاً ترون من خلاله جزاء الظالمين فتتهللون لسلامة أعزائكم وراحتهم بظل راية العدل جمعنا الله بكم بدار الخلود ومتعنا ببركاتكم المتواصلة وإن لكم أعظم ثواب."

وكتب فيه من القاهرة سيرافيم أفندي كسّاب الذي عرفه قبل إستشهاده بسنوات في دمشق، فقال:

"عرفت الفقيد منذ وعيت على الحياة وعرفت أعماله منذ انتظم عضواً في سلك جمعية القديس يوحنا الدمشقي الأرثوذكسية في دمشق وكان رئيسها الفعال وإمامها المقدام وروحها التي لا تنام مدبراً شؤونها ساعياً إلى نجاحها واعظاً في اجتماعاتها مهتماً بمكتبتها شفوقاً بمدرستها المجانية. عرفته نقياً تقياً غير متعصب ورعاً عاملاً مخلصاً سباقاً إلى المكرمات واعظاً مؤثراً وخطيباً متدفق اللسان عذب المنطق ظريف العشرة بشوش الوجه ولكنه عصبي المزاج لا يحتمل إساءة المسيء ولا ذبذبة المتلون فكان يقول للمحسن أحسنت وللمسيء أسأت غير هيّاب ولا وجل وهذه من أخلاق ذوي النفوس الكبيرة صفات ذات أخطار على حاملها اليوم لأن العالم لم يصل إلى درجة احتمالها بعد، ما دامت الرذيلة لا تزال منتصرة على الفضيلة. وقد كانت له اليد الطولي في إنقاذ الكرسي البطريركي الأنطاكي من السلطة الغربية فقاسى في سبيل ذلك السجن والاضطهاد وتعطيل مصالحه وأعماله حتى ظفرت نفسه أخيرا بسرورها حين رأى نجاح تلك الحركة التي ظلت شغله الشاغل سنوات عديدة.

أما حياته البيتية فكانت مثالا يحتذى وكفى بأنجاله الكرام

برهاناً ساطعاً على سمو تلك الأخلاق العالية التي كان يبثها فيهم على الدوام. وأخر مرة شاهدته فيها كانت في أوائل الحرب العظمى إذ أتى مصر فزارني في منزلي فسررت بمرآه بعد غياب سنوات عديدة وكانت السنون قد تركت شيئاً من آثارها على وجهه ومنكبيه ولكن همته الشماء لم تكن قد ونّت بعد فقد رأيت فيه تلك الحركة الدائمة التي عرفتها فيه وأنا طفل صغير.

وتحدثت جريدة الحوادث بطرابلس الشام (عدد ٣٤٣، بتاريخ ٢٢ يولية (تموز) سنة ١٩١٩) عن الكاهن الشهيد نقولا خشه قائلة:

" لم يبق فرد يختلج صدره بعاطفة الشعور الإنساني وسمع بفاجعة الكاهن الشهيد المرحوم نقولا خشه وقرأ فصولها المحزنة إلا وبكى. ذلك الذبيح الذي آثر الموت على خرق حرمة الواجب فابتسم لطعنة الجلاد ابتسامة معلمه العظيم لوخزات حراب المعذبين.

ذلك المجاهد الذي لم تقو ضروب الإرهاب ووسائل التعذيب على تغيير عزمه الحديدي في سبيل افتداء المئات من أبنائه فعنا لأحكام السياط وصبر على مضض الجوع والبرد واللكم والرفس والشتم في زوايا سجنه المظلم الذي فاق بفضل العامل التتري "بهاء الدين" على غرف الباستيل وسجون العصور المظلمة.

مات ميتة الشهداء بعد أن قضى حياةً ملؤها البر والجد والعمل وكان مثال الأب الصالح في تدبير شـؤون رعيته ونشر ألوية الوفاق والسلام بين أفرادها وعاملاً أميناً في خدمة الله والفضائل الإنسانية وإنشاء المشاريع الطائفية المختلفة شأن كل إكليريكي فاضل يعرف

كيف يستل من الدين سلاحاً لمكافحة ويلات الحياة وتوفير أسباب السعادة والرفاه بين أبنائه. بذا قضت سنة الشارع وعلى هذا فليجر رجال الدين إن كانوا لله يرقبون وأعظم دليل على فضل هذا الكاهن الشهيد إجماع الكل على محبته وتقدير فضله وهو ذلك الرئيس الذي لا تخلو ظروفه القاهرة أحياناً من إرضاء فريق من أبنائه وإغضاب آخر.

فسلام عليك يا شهيد الدين والمبدأ والواجب لقد عشت عيشة العاملين الأبرار ومت ميتة الشهداء الأخيار فذكر هذه الشهادة لا يمحوها كرور الأدهار".

وفي رسالة كتبها المعلم حنا ياسمين في مرسين جاء ما يلي:

" ولما حضر إلى مرسين كانت فاتحة أعماله إصلاح بناء الكنيسة السورية للروم الأرثوذكس فشمر عن ساعد لا يعرف الكلل وبنفس إنفطرت على عمل البر والإصلاح ابتدأ يجمع الإحسان من الطائفة حتى أنه كان بنفسه يساعد الفعلة ولا يألو جهداً بتنشيطهم إلى أن أتم مشروع إصلاح الكنيسة كما يجب وبنى مقبرة صغيرة بدار الكنيسة خصصت لدفن الآباء الروحيين ونقل إليها جثمان المرحوم الخوري ميخائيل مطر. وباشر بعد ذلك بإصلاح الأوقاف وتنظيم شؤونها وما فرغ من تنظيم الكنيسة وغيرها حتى أنشأ مدرسة للذكور والإناث وبوقت قصير أتم ما يلزمها وانتقى لها من المعلمين والمعلمات من فيهم الكفاءة والمقدرة وافتتحها وأدخل إليها عدداً كبيراً من التلاميذ ذكوراً وإناثاً ولم يكن يميز بين أبناء الطوائف المختلفة بل كان يقبل فيها من جميع المذاهب وهذا دليل كبير على محبته للعلم ونشره بين جميع

الطبقات ولقد خصص من وقته ساعتين في اليوم لتعليم الديانة المسيحية والحساب وكان يفسر للتلاميذ فصولاً مهمة من الإنجيل الشريف.

رأيته وكنت بمعّيته أيام حصول المذبحة بولاية أطنة فكان يطوف ليل نهار في شوارع مرسين مسكّنا قلق الأهالي. ولقد دعاني أن أطوف معه أكثر من مرة في الليل لهذا الغرض. ومرة أثناء طوافه عند منتصف الليل صادف المتصرف صديقه فسأله هذا إلى أين كان ذاهباً فأجابه إن عيني لا تعرف لذة المنام قبل أن أرى أولادي وأضمن راحتهم فشكره المتصرف وأعجب بهمته وغيرته.

كان يحسن لكل إنسان لا فرق عنده من أي ملّة كان وإني إذ أتلو واقعة شهدتها بنفسي. أتاه يوماً رجل يدعى رشيد من إخواننا المسلمين المستوطنين مرسين. فشكى إليه ما به من الألام والأسقام وأنه حضر من الشام مأذوناً ثلاثة أشهر وحيث انتهت وزاد عليها تسعة اشهر قضاها هو وعائلته بالمرض والفاقة خاف عاقبة الأمر فطلب من صاحب الترجمة تحريرا للقائد بالتوصية وشرح عذره عن التاخير مدة التسعة أشهر فأجابه إلى طلبه مع أنه لا يعرف القائد ولا سمع به ولكن عمله هذا من جملة الأدلة على شدة محبته للإحسان. وكان ما أراد وحصل الجندي على الرخصة اللازمة لتأخيره. وله من الأيادي البيضاء ما يفوق الحصر فكم من عائلة خلصها من أنياب الجوع والفقر في زمن الحرب ومظلوم أزال عنه الكرب.

وكتبت "فتاة مرسين" التي كانت تلميذة في المدرسة التي أنشأها الأب نقولا هناك، مقالا بعنوان "مات من ذكره لن يموت"، جاء فيه:

"أب وفى الأبوة حقها وعليه ينوح الآباء ويبكيه الأبناء. وروح عزيزة تسعى في سبيل العلي ورفع منار العلم فخسرناه وخسارتنا به عظيمة لا ترد. عرفته وعرفت فيه خير ما يقال بأب وجد على وجه البسيطة. كان لمرسين راعياً أميناً وأبناؤها يرفعون برؤوسهم إفتخاراً بأبيهم الروحي الذي نال أرفع منزلة في القلوب وإليه يعودون في كل مسائلهم الروحية وحتى الأدبية أيضاً. أتى مرسين رجل الله الحقيقي فلم تنقض على وجوده فيها مدة قصيرة إلا وأسس فيها جمعية زهرة العفاف للسيدات غايتها تهذيب الأحداث في مدرسة وطنية ففازت بغايتها وأي فوز فدخلها الذكور والإناث ولم ينقض الوقت القصير حتى سارت في طريق الرقي والنجاح فأصبحت بعلمها تضاهي أحسن مدرسة ابتدائية للأجانب والكل معجبون بصاحب القلب الكبير المثلث الرحمات الأب الشهيد الخوري نقولا خشه رئيس الجمعية ومدير المدرسة.

أعماله لم تنحصر في خدمة بيعة الله وتأسيس المدرسة فقط بل كان عاملاً حقيقياً في كل خدماته الجليلة التي أسطر القليل منها بملخص العبارة لا لأنها لا تستحق الذكر بل بالعكس لأني أشعر بقصوري عن ذلك تاركة المجال لمن لهم المقدرة الكافية لتدوين مآثره الغراء.

في الصباح باكراً حينما كنت أذهب إلى المدرسة قد كنت أجده وراء مكتبه يكتب حتى الغروب واصلاً ليله مع نهاره حارقاً نفسه كالشمعة كي يضيء طريق الظلمة لتهذيب الأحداث تهذيباً حقيقياً غارساً بعقولهم معنى العلم ومنزلته الرفيعة. وهنا أذكر عبارة لا أنساها ما حييت حين وقف واعظاً على أبناء وبنات المدرسة أثناء الامتحان السنوي قائلاً:

"أنتن صغيرات اليوم وصبيات الغد وأمهات المستقبل عليكن الوطن يعلق الآمال فكما أن الشبيبة هم زهرة الوطن وحماته فأنتن روح هذا الوطن العزيز ومحط آمال الشيوخ ذوي النظر البعيد"

له همّة لا تعرف الملل وحكمة نادرة كانت موضوع حديث الكبير والصغير وموضع ثقتهم. هو أب حنون للفقير وأخ مخلص للغني يرشده إلى عمل الدراية منزهاً عن الغايات ويذكره دوماً بأخيه البائس المسكين.

ولقد كان رحمه الله يخصص ساعتين من وقته الثمين نهار كل خميس لأجل التعليم المسيحي لأبناء المدرسة كذلك إمتحان مقدرة التلاميذ مرتين في السنة بوجود الفريقين من المعلمين والمعلمات مع التمثيل الأدبي وإلقاء الخطابات وإنشاء الأناشيد وإعطاء الجوائز لكل مستحق.

وظهر في "مرآة الغرب" بنيويورك، (عدد الأربعاء في ٨ يناير (كانون الثاني) سنة ١٩١٩) مقال كتبته إحدى خريجات المدرسة في مرسين. مما جاء فيه أنه:

"أب ساهر على خير رعيته سهر الأم على طفلها. وهو المحامي عن الطائفة كلها والشبان خصوصاً من إعتداء الحكومة. فكم وكم من مـرة حماهم في منزله متحملا المسئولية

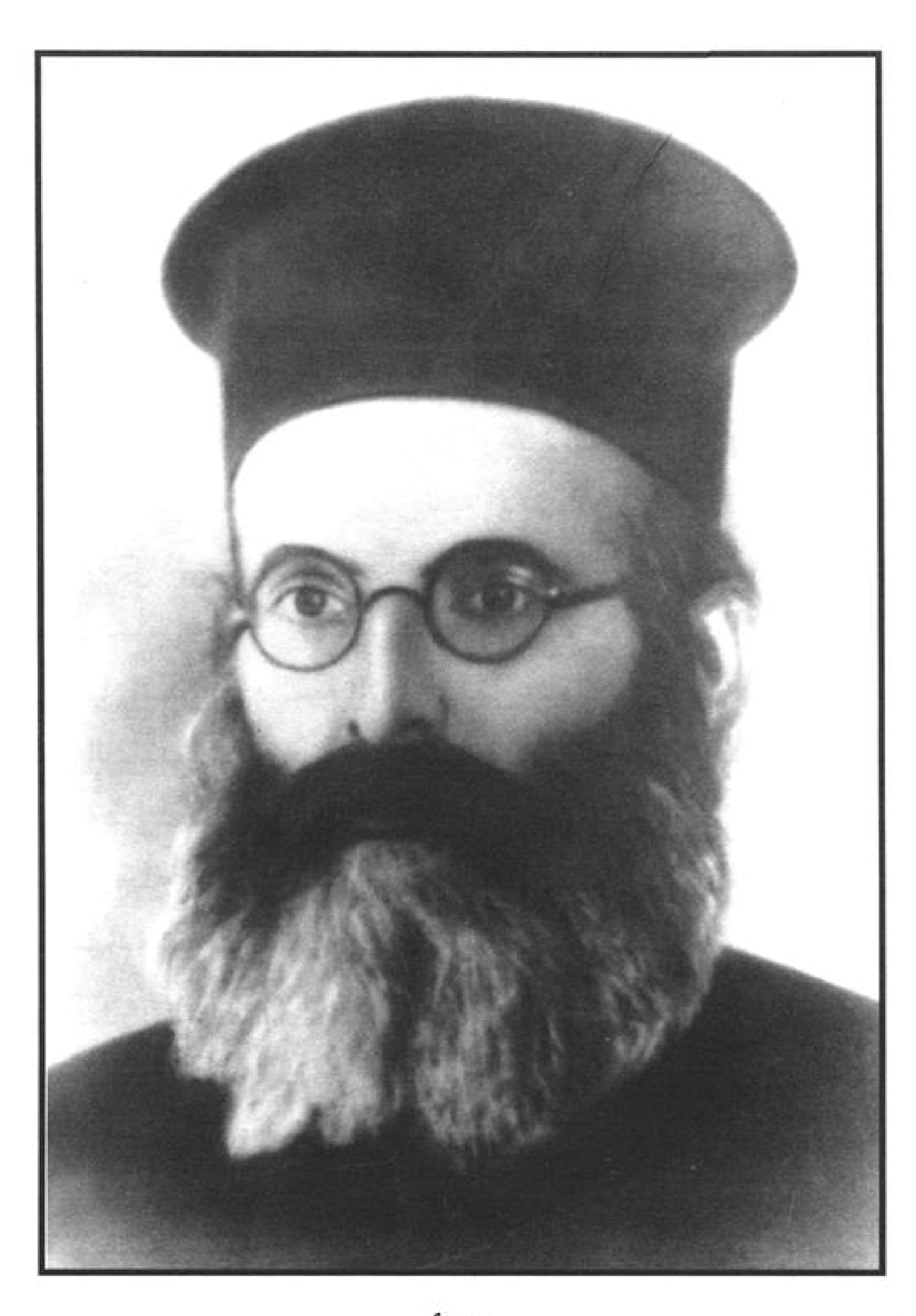
وذهب يدافع عنهم دفاع الأسد في دار حكومة الظلم مخاطراً بنفسه فلا يعود إلا وإكليل النصر معقود فوق رأسه بفضل جرأته الأدبية وبراعته المشهورة ... إني اشعر بعجزي وقصوري عن تدوين مآثره الغراء لكن صوت ضميري أبى أن يسكت عن مصدر الفضل ..."

وفي قداس لراحة نفسه أقيم له في الكاتدرائية السورية الأرثوذكسية في بروكلين نقلا عن جريدة السائح بنيويورك عدد ٢٧ (ك ٢) سنة ١٩١٩م

كان قداس أمس الأحد في الكاتدرائية السورية الأرثوذكسية ببروكلين رهيباً تجلت فيه العواطف إذ إكتظت الكنيسة على رحبها بجماهير الناس لحضور الحفلة التذكارية التي أقامتها جمعية الأخاء الدمشقي في الثغر عن نفس المرحوم الخوري نقولا خشه وقد ترأس الحفلة سيادة الأسقف أفتيميوس وإكليروسه الموقر يعاونهم جوق حاملات الطيب ذوات الأصوات الملائكية.

وقد أبنّ الفقيد الشهيد قدس المتقدم في الكهنة باسيليوس خرباوي في الباب الملوكي تأبينا مؤثراً أسال الدموع وحرك العواطف في الصدور فوصف ما لاقاه رجال الكنيسة المسيحية من قديم الزمن من الاضطهادات في سبيل الوطن والدين وقال أن قتل الخوري نقولا ليس إلا من تلك الاضطهادات فلذلك هو أحد الشهداء الذين تقوم على ثباتهم في الإيمان والوطنية أسس المباديء. وقد وزّع رسم الشهيد على المصلّين لدى خروجهم من الكنيسة. فنترحم على نفسه مثنيين على غيرة وحمية الإخاء الدمشقي لإعتنائه وإهتمامه بتخليد شهيد دمشق.

المصدر: حبيب خشه، ذكرى شهيد، مطبعة الهلال، القاهرة - مصر، ١٩٢٠



الأب
حبيـــب خشـــه

الشـهيد في الكهنة
حبيـــب خشـــه
١٦ يوليــة (تموز) ١٩٤٨م

تاريخـــه

ولد حبيب نقـولا خشـه في مدينة دمشـق بسوريا عام ١٨٩٤، وكان البكر في عائلة مؤلفة من ثمانية أولاد. أبوه هو الشهيد في الكهنة نقـولا خشــه. تلقى حبيب دروسه الابتدائية والثانوية في مدرسة عينطورة ثم تابع دراسته الجامعية في الجامعة الأميركية في بيروت وتخرج عام ١٩١٤ حائزا على شهادة بكالويوس في الأداب.

وقبيل الحرب العالمية الأولى إنتقل والعائلة مع النازحين من مدينة دمشق إلى مدينة مرسين حيث خدم والده ككاهن للرعية الأرثوذكسية هناك. وفي عـام ١٩١٦، وخلال الإضطهاد الذي لاقاه المسيحيون في مرسين، قتله الأتراك بعد تعذيبه وكلل حياته بالشهادة للمسيح. بعد الإضطهاد، نزحت العائلة إلى مدينة بورسعيد في مصرعام ١٩١٧ .. حيث تزوج حبيب من وديعة توما، وهـي من عائلة سورية إنتقلت إلى مرسين، فإلى بورسعيد عام ١٩٢٢.

وعمل حبيب في بورسـعيد محاسباً ومترجماً لدى شـــركة " وورمز للشـــحن والتصـــدير"WORMS" وذلك ما بين ١٩٢٢ و١٩٢٤. رزق خلال هذه الفترة طفلة، جولييت. ثم أنتدب إلى فرع الشركة في مدينة بيروت بلبنان عام ١٩٢٤. وبعد أن حصل على جواز سفر مصري من المحافظة في شهر يونية (حزيران) من ذلك العام سافر مع عائلته إلى

بيروت لاستلام وظيفته الجديدة في شركة "SHELL" الممثلة لشركة "WORMS" . واستمر موظفاً حتى عام ١٩٣١ . خلال هذه الفترة رزق ثلاثة أطفال: مارسيل وفدوى ونقولا .

وفي يناير (كانون الثاني) ١٩٣١ قدم استقالته إلى الشركة مزمعاً أن يدخل سلك الكهنوت ، وانتقل مع عائلته من بيروت إلى دمشق. لكنه اصطدم بمعارضة زوجته لرسامته فلبث في دمشق عاماً كاملاً، حتى لان موقفها، ثم رسم كاهناً هناك عام ١٩٣٢، في الكاتدرائية المريمية بمقر البطريركية الأنطاكية في دمشق، حيث خدم حتى عام ١٩٣٥ . تنقل بعدها بين بورسعيد ودمشق والقاهرة إلى عام ١٩٤٣ حين استقر في العاصمة السورية بصورة نهائية.

وخلال العام الأول من كهنوته رزق طفلا "سليم" في دمشق. وفي عام ١٩٣٥ توفى إبنه نقولا إثر مرض مفاجيء، وكان في عامه الخامس. يومها كان الأب حبيب في كنيسة القديس نيقولاوس ببورسعيد والعائلة في دمشق، فأول ما التقى زوجته عند حضورها إلى بورسعيد بادرها بالقول : " الرب أعطى والرب أخذ فليكن إسم الرب مباركا" . بقى الأب حبيب وعائلته في بورسعيد حيث خدم ككاهن طيلة عام كامل، ثم عاد إلى دمشق عام ١٩٣٨ حيث زاول الخدمة لرعيته حتى عام ١٩٤٠ حين نقل إلى القاهرة. لبث الأب حبيب في القاهرة في كنيسة رؤساء الملائكة حتى عام ١٩٤٣، ثم عاد مجدداً إلى رعيته في دمشق.

أسرته

أنجب الأب حبيب خمسة أولاد : جولييت، مارسيل، فدوى، نقولا

وسليم. كانت (وديعة) الزوجة، امرأة تقية فاضلة، كريمة النفس، محبة للخير، قلما تلقاها في أوقات فراغها جالسة إلا والكتاب المقدس أو كتاب الصلوات في يدها. وقد اختارها الأب حبيب، أصلا، بتبصر، بعدما رأى فيها صدى للهف روح الرب فيه. كانت شريكة حياته وهمومه وحاملة أسراره. يطلعها على أحواله ومشكلاته ويستمزجها الرأي في صعوباته. حتى شئون صلاته كان يكشف لها جوانب منها. ومع ذلك إعترضت عندما أبدى لديها رغبته في أن يصير كاهناً. والسبب كان حرصها على الوضع المعيشي للأسرة، لا سيما وأن حبيب كان ناجحاً في وظيفته، محبوباً، محترماً، وكهنة ذلك الزمان، بعامة، معوزون. لم يشأ حبيب أن يفرض رأيه فرضاً على زوجته لأنه كان رفيقاً بها خفراً في تعاطيه معها، فأسلمها إلى ربه وانتظر. إنتظر سنة كاملة رأت وديعة في نهايتهــا حلماً غيرت، على أثره، رأيها. إذ عاينت جندياً مقبلاً صوبها فارتعشت، نظر إليها ثم أشار الى حنفية يتــدفق منها الماء دفقــاً، فإلى حنفية ينقــط الماء منها نقطاً، وقال: عليك بعد اليوم أن تكتفي بالقليل! فلما استفاقت إضطرب قلبها وقالت: إنما الجندي ملاك من عند الرب!. مذ ذاك رضيت بأمر الله وسايرت زوجها واقتبلت برضى وتسليم، ما يأتي عليها وعلى عائلتها.

كان الأب حبيب سويا في حياته البيتية. يوفق بين التزاماته الأســرية والتزاماته الرعائية جيداً. يومياته اتسمت، عامة، بالترتيب. يأكل مع أفراد العائلة بانتظام إلا متى قضت الضرورة، يجلس معهم كأي رب أسرة، يخرج بها متنزهاً ويمازح الجميع. لم يسع البتة إلى فرض الأصــوام والصلوات على أحد، لكنه كان يسأل مستفسرا. وكان

يعيش حياة زهد وصلاة وصوم.

أما وضع العائلة المعيشي، بعد رســــامة حبيب كاهنا، فقد ضاق بعض الشيء، لا إهمالاً منه لمسئولياته البيتية، بل لأن دخله كان متواضعا، دون إحتياجات العائلة بقليل. لهذا كان يوسف، أحد إخوته، يمد الأســـرة ببعض المال بانتظام.

كهــنوته

إنتمى الأب حبيب إلى الكهنوت عن دعوة إلهــية. كـــان يهمه أن يسلك في خطى أبيه. وكان يصلي أن تعطى له نعمة الشهادة على غرار والده.

لا نعرف تفاصيل كثيرة عن خدمته كاهناً. كان يذهب إلى القـــداس الإلهي صـــباح كل يــوم، وبعد ذلك يقضي ساعتين في المطالعة في البيت، ثم يذهــب في زيــارات تفقــدية لأفـــراد الرعية حتى موعد الغذاء. وبعد فترة اســـتراحة لم تكن تتجاوز الربع ساعة، كان يعود إلى القـــراءة حتى حوالي الساعة الرابعة بعد الظهر، ثم يتـــابع زياراته الرعائية حتى المساء. وفي عطلة آخر الأســـبوع كان دائماً يقصد دير القديسة تقلا في معلولا "سلوكية" أو "سيلِفْكية" حيث يقضي وقتـه مختلياً في الصلاة والقراءة. يترك الدير صباحاً يتمشى في الجبال ويـصلي حتــى المـساء. كمــا كــان يلجــأ في حــال الـضيق والإجهــاد إلى معلــولا يــصلي دقــائق صــامتاً أمــام قــبر القديــسة تقلا، فيعــود مشرقاً بالبهجة. إرتبط إسمه بمعلولا لشدة تعلقه بالشهيدة تقلا.

وكان لا يستقبل الزوار إلا إذا أتاه أحدهم يطلب إرشاداً. "يقرأ"

الأشـخاص وكأن كل منهم كتاب مفتوح أمامــه.

إهتم الأب حبيب بالآثــار القديمة وانكب على دراستها، خصوصا ما تعلق منها بالأديـــان. وكان قد شرع بوضع تأليف عنها. لكننا نعرف أنه أحب رعيته وغار عليها غيرة المسيح وكان عهده تفقدها بحرص وتواتر. وقد اشـــتهر بين رعيته بأمور ثلاثة: صلاته ومواعظه وعنايته بالفقراء.

فأما صلاته فقد حفظ الناس أنه كانت للأب حبيب تجلياته أثناء الخدمة الإلهية. من هذه التجليات إرتفاعه عن الأرض أحيانا. زوجته وديعة، بعد إستشـهاده، كشفت عن أنه أخبرها بذلك مراراً. كما روى، عن إرتفاعه عن الأرض، بعض المصلين في كنيسة رؤساء الملائكة بالقاهرة أنه اثناء القداس الإلهي كان بعض الأطفال يشـيرون إلى الأب حبيب وهو واقف في الهيكل أمام المائدة المقدسـة قائليــن لوالديهــم "أبـونا طاير في الهــوا". ومن هذه التجليات أيضاً ما رواه قندلفت الكنيســة: أنه في أحد الأيـام ذهب صباحا إلى الكنيسة كعادته، ووقف بباب الكنيسة للدخول فوجد الأب حبيب واقفا في الهيكل يصلي، ولعلمه أنه يطيل في صلاته لم يدخل الكنيسة وجلس أمامها في انتظار إنتهاء الأب حبيب من صلاته وخروجه من الكنيســة. وبعد فترة وفيما هو جالس بجانب باب الكنيسة رأى الأب حبيب ينزل من مسكنه، الواقع مقابل الكنيســة داخل حرمها، فوقف القندلفت منذهلا وسـأله: "أبونا إنت مش كنت دلوقت بتصلي في الكنيســة؟"، فقــال له الأب حبيب: "إنت شفتني !!" وطلب منه قائلا له: " لا تخبر أحد بما رأيت الآن إلا بعد موتي". وبالفعل لم يــرو القندلفت عما رأى إلا بعد فترة من سفر

الأب حبيب من القاهرة، قد تعود إلى بعد إستشهاده.

أما عظاته فكانت بسـيطة مختصرة لكنها كانت بليـغة تخرج من كل كيانه. وعظ في مايو (أيار) ١٩٤٧ :"الرهبان هم الأسلاك التي تربطنا بالسماء".

وأما عنايته بالفقراء فكانت كبيرة. الفقراء كانوا أصدقاءه بمعنى الكلمة، يجلس إليهم مرحاً، وكان مشهوراً بروح النكتة والمرح. من بين الأصدقاء رجل عجوز يدعى إبراهيم يسكن في حي الميدان في دمشق. كان فقيراً يسكن كوخاً صغيراً، والأب حبيب كان يتردد إليه متبركاً، إذ كان الشخص الوحيد من بين أهل حي الميدان القديم الذي نجا من مجزرة العام ١٨٦٠ في دمشق.

كان يعرف الناس أنه أبو المبرات، فكانوا يعطونه ليعطي المحتاجين واثقين أن معونتهم تذهب إلى حيث ينبغي. كل هذا أثار في وجه الأب حبيب متاعب جمة من الكهنة الذين حسدوه وحاولوا نثر الأشواك في طريقه. إحتج مرة كاهن لدى البطريرك الأنطاكي فاستدعاهما، قال الأول: "الناس يدفعون له أكثر مما يدفعون لي". أجاب الشهيد: "إذا كان الناس يدفعون لي، فما ذنبي؟" وكان المعروف عنه سخـاؤه المطلق، فموارده المالية كان ينفقها على المساكين فيعطي للسـائلين كل ما في جيبه. كما نذر أخوه يوسف مبلغاً لدير مار تقلا في معلولا. وشى الوشاه ضد الأب حبيب للبطريرك طحان زاعمين أنه بدد قسماً بسبب غباوته في الإنفاق على الترميمات والمشاريع مما ضايق الأب حبيب.

أحد المصريين، ممن عرفوه، كان في زيارة إلى دير صيدنايا، أجاب على سؤال في شأنه، وبصورة عفوية: " هذا مجنون، يوزع كل

فلوسه على الفقراء!".

حضر الأب حبيب مرة اجتماعاً في الدير برئاسة الأب ميرون زيات لمصالحة كاهن القرية مع الرعية. الخلاف مالي ... اندفع الأب حبيب فعرض بتجرد رسـولي وحماس، أن يدفع له تمـــام راتبه وقدره أنــذاك ١٥٠ ليرة (١٩٤٧).

أكثر أعمال المحبة عند الأب حبيب كانت مستورة. هذا بديهي بالنسبة لرجل مثله. فقط بعض الأخبار عنه عرفت هنا وثمة من هذه الأخبار قصة الجبة. مفاد قصة الجبة أن يوسف شقيق الأب حبيب، أرسل إليه مرة بجبة جديدة فلبسها وذهب إلى البطريركية بدمشق. هناك التقاه غبطة البطريرك فسأله: " ما هذه الجبة الأنيقة؟" فأجاب: " أخي يوسف بعثها لي من مصر". "ماذا فعلت بجبتك العتيقة؟" "تركتها في البيت". "حسناً سوف أرسل إليك خوري حوران فأعطه إيـاها". "كما تريد يا سـيدنا" فلما حضر إليه خوري حوران أعطاه الجبة، ولكن لا جبته العتيقة، بل الجديدة!.

هذا وقد لاحظ إخوته وأقاربه أن البيت كان يمر أحياناً كثيرة بحالة ضيق نتيجة لصرف الأب حبيب كل ما لديه على من يطلب المساعدة فأصبحوا يمتنعون عن تقديم المال له لكن يزودون البيت باحتياجاته من مواد تموينية وغيرها.

عائلته خبّرت أن إمرأة محتاجة دقت بابه مرة، وطلبت طعاماً لنفسها ولعائلتها، فاستدار بصورة تلقائية واتجه صوب المطبخ وتطلع فرأى وعاء فيه طبخة جاهزة من "المحشي الملفوف" فرفعه وخرج به ودفعه للمرأة.

ومن ضمن القصص عن عطائه أنه في يوم ما من شهر أغسطس (آب) صادفه عضو بارز في الطائفة بكنيسة رؤساء الملائكة بالقاهرة يدعى متري بشـــــارة في ميدان باب اللوق وكان الأب حبيب سائراً على قدميه بينما متـــري بســـيارته، وأســـفلت الشـــــارع يذوب من شـــدة الحر ففهم طبعاً وناداه: " شـــو أبونا" أجاب أنه عائد إلى منزله بالظاهر، المسافة حتى الظاهر حوالي ٥ كيلومتر، وكان أن أعطى ما تبقى في جيبه لأحد المتســـولين ولم يبق أمامه إلا العـــودة إلى المنزل ســـيراً علـــى الأقـــدام.

إلى ذلك خُبر عن الأب حبيب أنه كان يستدين الكثير من المال مقابل سندات دفع لأجل قريب، ليقوم بتجهيز إبنـــة أرثوذكسية أو مقطوعة من الأهل، لا سيما إذا حام حولها أحد من غير دينها، ثم يقوم بزفها إلى شاب أرثوذكسي.

شهادات أخرى أفادت أن أفراد عائلته وجدوا، بعد إســـتشهـاده، دفتر حسابات تشير إلى ديون للأب حبيب مع أسماء الدائنيـــن، وعندما قصدت العائلة هؤلاء لتسديد الديون، تبين أن هذه مبالغ أعطيت للأب حبيب لمساعدة الفقراء. بالنسبة إليه كانت ديونا!. أفراد عائلة الأب حبيب لا يعرفون الكثير عن والدهم إذ أنه كان كتوماً يقضي معظم وقته في القـــراءة والصلاة في البيت، والجزء الأكبر من النهار في زيارات رعائية.

فقد كان حريصاً على مواصلة رعاية أبناء الطائفة، لا يترك مريضاً إلا وزاره، فكان ينتقل سائراً على قدميه من الصرح البطريركي في دمشق حتى العفيف في المهاجرين ليمر على العجزة والمرضى

واليتامى. وفي يده بركة وفي لسانه تعزية، وصلاة إيمان وخشوع. كما يشهد أبناء أخيه أمين أنه كان يزورهم وهم أطفال بمجرد سماعه بإصابتهم بسخونة أو مرض وكان يصر على الصلاة معهم مما كان يعطيهم شحنة روحية كبيرة تشعرهم بالراحة والشفاء العاجل.

صفاته وفضائله

كانت عيناه غائرتين في وجه نحيل مشع. جسمه نحيل من عظم وجلد. وروحه تحمل جسده كعبء، في شوقه إلى السماء. وهو دوما في ذهول. المحبة والحنان مرسومان في وجهه وأنامله. وإذا ما طاف على شعب الله ومساكين الأرض من العاجزين والمرضى واليتامى، كانت في يده بركة وعلى لسانه تعزية وصلاته إيمان وخشوع. همومه دينية. الكنيسة شغله الشاغل.

ما كان الأب حبيب حسوداً غيوراً، طماعاً، أنانياً، شرهاً، متقلباً، مرائياً. كان صافياً شفافاً صادقاً مستقيماً مخلصاً لله كل الإخلاص. لا يسيء الظن بصحبه، تعامله مع الأخرين ملائكي السمات. الشفافية سمته الكبرى خالية من الشوائب والغموض. هو البلور الصافي ١٠٠٪. يقرأ الأشخاص وكأن كل منهم كتاب مفتوح أمامه. كيف؟ بجهاد مرير ضد كل العيوب. ولد مثل كل الناس، ولكنه ما عاش مثل كل الناس. ما كان إلى جانبه أب روحاني من آباء البرية ليدون لنا تاريخ إستشهاده ضد الأهواء حتى أحرز النصر عليها. فزال الظلام وإشرقت شمس البر فيه. شفافيته ثمرة الجهاد في الروح القدس.

لا تستطيع الطبيعة البشرية الساقطة المظلمة أن تبلغ ملء الصفاء إلا

إذا تحولت بفعل الروح القدس، وتجلت كما تجلى يسوع. القديس سمعان اللاهوتي الحديث كان يرى داخله مستنيراً عندما يلمع فيه الروح القدس. هذا الروح عينه هو الذي حول شـــهيدنا حبيبا إلى شــفاف.

جعلته الرقة أوهن من أن يرد سائلاً يأتيه محتاجاً. كان عدواً للمال، إنما ينفقه بسخاء وفهم على الفقراء. ما كان أبله أو غبياً. إنما كان فطناً. كان يسوع ملء حياته وجنباته فكان يشرقه. كثافة جسده محدودة لكن روحه تتطلع إلى العلا. الأب حبيب إنسان تبدل كيانه، فصارت المحبة والرحمة تتبعان من كل كيانه، حتى في أطراف أنامله. ليست المحبة المسيحية رقة هندية، بل إستشــهاداً. كل كيان الإنسان ينساب في درهم يدفعه إلى الغير. الأب حبيب هو يوحنا الرحيم الثاني. الشبه بينهما كبير. صفرونيوس الدمشقي إمام لاهوتي زمانه، ومعلمه يوحنا موخوس كانا مثالا لديه. بذل لهما من الإحترام والتقدير ما لا يوصف حتى قال أهالي الاسكندرية أنه ظل لهما.

أهل الاختصــاص يقولــون أن المجانين (البلهاء) لأجل المســيح ظهــروا أولا فــي ســـوريا. في ٧/٢١ نعــيد للمتبالهين ســمعان ويوحــنا. الأب حبيب هو أحــد المجانين لأجل المســيح. الأب حبيب وضع أنامله على جراح المساكين والعجز، فعانق جراح المســيح. جاهد الجهاد المر ضد كل العيوب وأحب حياة النساك وأخبارهم، فجاءت شفافيته ثمرة الكد في الروح القدس. عاش مجروحاً بحب الرب يسوع ومات كذلك.

قبل الإستشهاد

قبل أن يخرج الأب حبيب في رحلته إلى جبل الشـــــيخ حيث استشـــــهد حدث له أمــر غير عادي أطلع زوجته عليه، وهي خبرت فيما بعد. قـــــال لها: "اليوم أثناء صــــلاتي، أحسست بأني إرتفعت عن الأرض أكثر من المعتـــاد". فوجف قلب زوجته ورجته ألا يذهب، لا سيما وأنه كان من المفترض أن يترافق وأخرين فاعتذروا، فلم يرض. فســـــدت الباب في وجهـــه فأخـــذ يضحك قائلا لها: "ما بالك اليـــوم، على غيـــــر عادتك، تمنعينني من الذهـــــاب، مع أنها ليست المرة الأولى التي أخرج فيها إلى جبل الشيخ؟". نصف ساعة حاولت خلالها صرفه عن الذهاب، على مرأى من بقية أفراد أسرته، فلم يشأ. فتركته لإلهامه. فخرج وكان إستشـــهاده.

الشـــهادة

طيلة حيـــــاته اشـــتهى الأب حبيب أن يمجـــــده الله بمـــيتة الشـــــهادة، فأعطـــــاه اللـــه منيـــة قلبه.

ترك الأب حبيب دمشــق بعد ظهر الخميس ١٥ يولية (تموز) ١٩٤٨ إلى عرنة حيث قضى ليلته في بيت السيد يوســف صليبا، وفي الساعة الخامسة من صباح الجمعة ١٦ يولية (تمــوز) إنطلق إلى سفح جبل الشيخ الغربي برحلة علمية رياضية ورياضة روحية للتأمل وحيث توجد آثار قديمة رومانية ويونانية.

ويقــول الأب أيوب سميا معاصره: "طلب أن يصعد إلى جبل الشـــيخ العـــالي فلم يسمحوا له (آل صليبا) لأنه لم يوجد في ذلك

الوقت أحد يصعد معه، فقــال: إني ذاهب مع المهندسين الحكوميين الموجودين هناك وهم من دائرة تنظيم المدن السورية ومعهم عبدالله يوسف صليبا فذهب معهــم إلى عين السنونو التي تبعد عن البلد (عرنة) ربع ساعة جنوباً في الجبل، وهناك بقى المهندسون بينما صعد هو إلى عين جفنة التي تبعد عن عين السنونو غرباً مدة ربع ساعة ومنهــا وبعد إستراحة ثانية صعد إلى مكــان يلقب (وعرة الشعــارنة) ويبعد خمس دقائق غرباً وبيــن الجميع طريق خاصة غير مشــهورة يسلكها الحطابون والمهـربون وسميت الوعـرة لوجــود آثــار بيوت قديــمة خربة كانت مسكونة من بعض أهــالي قرية عين الشعراء (عين الشعرا). وهناك جلس يستريح الإســتراحة الثالثة ويبدأ خلوته الروحية وكان يقرأ في الكتــاب المقدس وكان موقعه هــذا في ثلثــي الطريق إلى قرية شــبعا في الجنوب اللبناني.

وبينما كان يتفيأ بظل صخرة كبيرة مرت به قافلة من المهربين مؤلفة من عشرة أشـــخاص إعتادت تهريب الحبوب والقمح على الدواب من سورية من جهة بيت جن إلى شبعا، فاستغربوا وجوده هناك. وسألوه عن هويته فأجابهم بكل الإيضاحات فظنوه جاسوس يهودي، إلا أنه لفت نظرهم إلى ثوبه الكهنوتي فقــالوا له أننا لم نقتنع بذلك فطلب منهم توصــيله إلى أقرب مخفر درك ســوري أو لبناني للتثبت من هويته، لكنهــم إقتادوه إلى واد سحيق ثم نزعوا عنه ثيابه وساقوه عارياً ولما لم يعد يقدر على المشى ضربوه وجروه حتى وصلوا به إلى الأراضي اللبنانية وتابعوا تعذيبه أربع ساعات متواصلة لكونه كاهناً للعليّ، حتى لم يبق مكان في جسمه لم يهشم، وبعد خصيه حياً ربطوه

بحمار وصـــاروا يدحرجونه من أعلى التل إلى أسفلها.

وقد شهد بعضهم أنه أثناء تعذيبهم له كانوا يطلبون منه أن يجحد المسيح، لكنه لم يستجب لطلبهم رافضاً ذلك، مما زاد من غضبهم ومن تعذيبهم له. وكان كلما إزداد هو رفضاً كلما إزدادوا هم إمعاناً في تعذيبه. حتى خارت قواه ولم يعد يستطيع الكلام، ولم يوقفهم حاله هذا عن غيهم بل ظلوا مصرين على طلبهم منه وتعذيبهم له. أما هو، وهو على هذا الحال فكان يضع أحد أصابع يده اليمنى على أحد أصابع يده اليسرى على شكل صليب مقبلاً إياه رافضاً إنكار ربه يسوع المسيح. وعندما يئسـوا منه وأدركوا أنه لن يحقق لهم مطلبهم أصـعدوه إلى صخرة عالية وألقـوا به إلى الوادي فانكسر عموده الفقري وفاضت روحه الطاهرة إلى بارئها، فقضى شهيداً للمسيح. وشهد أحد زملائه: "ما كان فيه عظم غير مكسور". بهذا تحققت أمنيته التي كان يرددها مراراً "يـارب أعطني مـوتة المســيح".

وفي أثنـاء تعذيبه مر فتى مسـيحي من عـرنة من المكان (جبل الشيخ) واسـمه سـليم إبراهيم شاهين وعمره ١٢ سنة وكانت الساعة الثالثة ظهراً فنظر أحدهم يحمل الأب حبيب عارياً بشكل مقلوب فسألهم عنه فقالوا له يهـودي. فأسرع إلى عرنة ووصلها في الساعة الخامسة فرأى البلدة مضطربة لطول غياب الأب حبيب فقال لهم عما شاهده فأيقن الجميع أنه هو الأب حبيب وأنه قتل بلا شك فأسرعوا وأعلموا مخفر المنطقة الذي إتصل بدوره بمخفر درك شبعا حيث توجهت قوة مشتركة سورية لبنانية إلى المنطقة وعثرت على جثة الأب حبيب عارية والدماء تغطيها والكسور بادية فيها وبالأخص العمود

الفقري، فنقلت الجثة إلى دمشق حيث صلى غبطة البطريرك ألكسندروس عليه ورثاه بكلمة أبوية وصفه في مستهلها بالقديس، ثم دفن في مدفن الكهنة في مقام القديس جاورجيوس في المقبرة الأرثوذكسية شرقي سور دمشق.

وفي المحكمة تعرف الفتى سليم على الجناة الذين ادعوا أنهم ظنوه جاسوساً يهودياً لأنه كان مختتناً وقد نظر المجلس العدلي اللبناني في هذه الجريمة وقرر الحكم بالإعدام على المتهم الرئيسي فيها المدعو (أحمد علي حسن أبي الحسن) شنقاً حتى الموت.

وقد تظلم أهالي شبعا لدى رئيس الجمهورية اللبنانية لتخفيف الحكم وأوضحوا بعدهم عن الطائفية وأن هذه الجريمة لم ترتكب بحق "كاهن" بقدر ما ارتكبت بحق "جاسوس يهودي" كما بدا لهم. إلا أن المجلس العدلي ورئيس الجمهورية أكدا الحكم وصدقه رئيس الجمهورية ونفذ الإعدام شنقاً فجر السبت ٢٥ سبتمبر (أيلول) ١٩٤٨ في سجن الرمل ببيروت.

المصــادر

(١) إسـبيروجبور، "في تراثنا الخوري حبيب خشــة" من المرأة في نظر الكنيسة، مطرانية الروم الأرثوذكس في اللاذقية، ١٩٩٤، سوريا، ص ١٩- ٢٥.

(٢) الأرشمندريت الراهب توما (بيطار)، القديسون المنسيون في التراث الأنطاكي، منشورات النور، طبعة أولى، ١٩٩٥، بيروت - لبنان، ص ٥٧١ - ٥٧٧.

(٣) د. أسد رستم ج٣ كتاب كنيسة أنطاكية.

(٤) بعض الصحف السورية واللبنانية تموز أب أيلول ١٩٤٨ (ألف باء الدمشقية - الدنيا البيروتية - بيروت - الحياة ...).

(٥) الوثائق البطريركية أبرشية دمشق - بيروت.

(٦) سجل جلسات المجلس الملي للقرن الماضي.

(٧) وثيقة عن إستشهاد الخوري حبيب بخط يد الأب المرحوم أيوب سميا.

(٨) جوزيف زيتون - زيارة للبطريرك إغناطيوس الرابع إلي أنطاكية.

(٩) الخوري حبيب خشــة شهيد الكنيسة والوطنية.

(١٠) روايات شفهية دمشقية من معاصريه.

* اشـــــترك في إعداد هذه المــادة نيافة المطران نقولا أنطونيو، متروبوليت طنطا وتوابعها والوكيل البطريركي لشـــــئون الطائفة العربية بمصر بمعاونة بعض أفــراد عائلة الشــهيد.

مطبعة باب توما
وليم اسطفان